المسلمون في ألمانيا

بقلم أيمن مزيك
(أمين عام المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا)

تو صل ا ستطلاع الرأي الذي أجر يت بتكل يف من صحيفة (فاينانشيال تاي مز) الأمريك ية اليومية، في 21 دولة،والتي شارك فيها أكثر من 21 ألف شخص، إلى أن أكثر من نصف الأوروبيين الغربيين يشعرون بأن وجود المسلمين في بلادهم الأوروبية، يوا جه بالر فض، و هي نتيجة مثيرة للذعر، وترتفع هذه النسبة في ألمانيا لتصل إلى 61 في المائة، وكلما زاد تأثير الأحزاب اليمنية، كلما ارتفع الاستياء من هذا الوجود.
أما التقار ير الشاذة التي تنشر ها بعض و سائل الإعلام وتصريحات بعض السياسيين، التي تتن بأ بحدوث هجمات إرهاب ي ة في هذا البلد الأورو بي أو ذاك، وتـ سعى إلى إثارة المشا عر، فإنها تقوم بالباقي، ولكن المجتمع الألماني لم يكن بعد مستعدا لمواجهة ظاهرة تنامي التطرف اليميني المثيرة للمخاوف، مما جعل الأحزاب اليمينية المتطرفة قادرة على دخول البرلمانات المحلية في أكثر من و لاية ألمانية، ولم يكن قادرا بعد على تحذير مواطنيه من ذلك، ولا حمايتهم، علما بأن هذه البيئة اليمينية المتطر فة، هي التي تتحمل –تبعا لآخر ما تو فر من معلومات- المسؤولية عن الهجوم الإرهابي الوحيد الذي وقع في ألمانيا، بعد الحادي عشر من سبتمبر، وهو محاولة اغتيال 22 شخصا في حي كولن- مولهايم ذي الأغلبية التركية.
أما عالمة التار يخ النمساوية بريجيتا هامان، فقد صرحت في حديث مع كل من شتيفان أوست، رئيس تحرير مجلة دير شبيجل الألمانية الأسبوعية، وفرانك شيرماخر، ناشر جريدة فرانكفور تر ألجيماينه الألمانية اليومية، قائلة: "إنني أعتقد أنه ا لأمر سيتكرر مرة أخرى، ولذلك فعلينا أن ندرس بعناية (الزعيم النازي الألماني أدولف) هتلر، والحقبة النازية، حتى يتضح لنا، ما هي التطورات الفظيعة، التي تجعل حدوث ذلك (الهولوكوست من جديد) أمرا ممكنا".
كما أن هناك صورة يعتريها التنا قض، فهناك أكثر من ثلا ثة ملايين ونصف المليون من المسلمين المقيمين في ألمانيا، والذين اندمجت غالبيتهم العظمى في المجتمع الألماني، ومنذ أر بع عقود والمسلمون، الذين يشكل الأتراك غالبيتهم، يدفعون الضرائب بانتظام، والتزموا بالحياة اليومية السائدة في ألمانيا، ولم يعودوا يلفتون الأنظار إليهم بصورة كبيرة، وحتى معدلات الجريمة التي يتورطون فيها، لا تزيد عن معدلات نظرائهم من الألمان، وبالرغم من التقارير الصحفية الرخيصة، مثل الحديث عن تجارة الرقيق الأبيض، والقتل حماية للشرف، وغير ذلك من العناو ين المثيرة الأخرى، فإن الو ضع العام في المدن الألمانية يتسم بالسلام والهدوء، و هو ا لأمر الذي لا يعود الفضل فيه إلى قوات الشر طة، ولا إلى هيمنة ما يعرف با سم (الثقا فة الألماني ة الرائدة) ، بل ير جع ذلك إلى المواطن ين العقلا ء، سواء كانوا من المسلمين أو من غير المسلمين.
ولكن هل تغير الوضع بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، بعد تفجيرات مترو الأنفاق في لندن، والقطارات في مدر يد، واغتيال المخرج الهولندي فان جوخ؟ لـ قد أ صبحت أ صابع الاتهام في المسؤولية عن هذه الأعمال المشينة موجهة إلى ا لإسلام دون تمحيص، وأصبح

الكثيرون من الألمان يرون الإسلام مثيرا للاستغراب ومصدرا للتهديد، بل إن نغمات مشابهة لذلك أصبحت تتردد في داخل البرلمان الألماني الاتحادي (بوندستاج) ، في جلسات النقاش عن اندماج الأجانب في المجتمع الألماني، وأصبح كثيرون يضعون(الثقافة الألمانية الرائدة)، كنقيض لما يزعمون أنه المثل الفاشل للمجتمع متعدد الثقافات.
ويبدو أن الوقت قد فات، حين كانت التحذيرات من وضع الإسلام والمسلمين في موضع الاتهام، تؤتي ثمارها، ولم يعد هناك مجال لخداع الذات أو المكابرة، إن أصابع الاتهام موجهة إليهما لا محالة، وليس أدل على ذلك من نتائج استطلاع الرأي المشار إليه أعلاه.
وما زاد الطين بلة، أن بعض القطاعات من المحافظين ، قد وجدوا في الإسلام ضالتهم، ليكون الوقود الذي يلهبون به النقاشات التي تدور في الغرب عن القيم، ومن المؤسف أنهم لا يطرحون ماهية هذه القيم الغربية، بل يتكون تدور رحى النقاش حول مدى اختلاف الغرب عن القيم التي يتمسك بها الغرباء، والمقصود بهم هنا المسلمين، وفوق كل ذلك اضمحل الحديث عن الاندماج المزعوم، ليقتصر على الأبعاد الأمنية، ولم يعد هناك فصل واضح كان يمكن أن يساعد على التفريق بين الأجانب وبين المخاطر الأمنية، ولا حتى في وسائل الإعلام.

صعوبات داخل الجالية الإسلامية

أصبح التردد على المساجد، الذي كان في الماضي أمرا بديهيا، شيئا يدعو للريبة ممن يقوم به، بل وأصبح المشي إلى المسجد في حد ذاته شبهة، وأصبحت الاتهامات جاهزة مثل القول بأن"القاعدة في كل مكان"، وأن أفكارها تنتشر كالهشيم بين أفراد الجالية المسلمة، بغض النظر عن مدى اندماج هذه الجالية، ومدى انفتاحها على المجتمع المحيط، وبرغم استنكارها لكل أعمال المتطرفين، والنأي بنفسها عنهم ، بل حتى لو كانت هذه الجالية نفسها ضحية الاعتداءات عليها بالنيران، كما حدث كثيرا في الماضي، وضحية فرق التفتيش التابعة للشرطة، وهو الأمر الذي لا يعيره الرأي العام أي انتباه.
إن مجالس إدارة المساجد، والاتحاديات الإسلامية واقعة اليوم تحت ضغوط هائلة، فهم يريدون من ناحية أن يظهروا رغبتهم في الاندماج، ومن الناحية الأخرى هم يريدون أن يقللوا من حدة السخط المتزايد والشكوك المتنامية لدى الجالية المسلمة، من جراء النقاشات العاصفة.
وكان من نتائج ذلك على صعيد الجالية الإسلامية، أن مروجو نظرية المؤامرة قد وجدوا سوقا رائجة، وأصبح الكثيرون يتحدثون عن الهجرة من ألمانيا، كما أن ذلك الوضع صب في مصلحة المتطرفين، وهم أولئك الذين يسعون منذ سنوات لإشعال نار الصدام بين المجتمع الغربي الذي يزعمون أنه عدواني ومنحط، وبين مجتمع مسلم يزعمون أنه متناغم، وكذلك يحتفلون بالبعث من جديد، وتثير آرائهم حفيظة الغالبية العظمى من المسلمين المسالمين والراغبين في الاندماج، وتضع المسؤولين عن الاتحاديات الإسلامية أمام مهام عسيرة وبالغة التعقيد.
وفوق ذلك يتساءل كثير من المسلمين بمنتهى الجدية: إلى متى سيتحملون الأوضاع في هذه البلاد، التي ولدوا فيها، ولكنهم تحولوا بين عشية وضحية ودون ذنب اقترفوه إلى صراع حضاري؟

ورأى كثيرون من المسلمين القائمين على الحوار، وآخرون من الأصدقاء العاملين في حقول السياسة والإعلام والكنائس، أن النتائج المتواضعة التي أثمرها الحوار الذي استمر عشرات السنين، بدأت تتسلل من بين أيديهم.
وتساءل الجميع: هل هناك صور عدو فقط؟ أم أن هناك أيضا صور صديق؟ هل أصبحت الدعوة إلى الحوار قاصرة على السذج والحالمين؟ هل أصبح المتشددون هم أصحاب اليد الطولى، أم أن العقل سينتصر في النهاية؟
من المؤكد أن هناك إجماع أن الوضع الأعوج المذكور أعلاه يدعم القوى المتطرفة، ويضعف القوى المعتدلة والمتزنة على الجانبين، ولا يمكن بحال أن يكون ذلك هو الهدف.
كما أنه من المؤسف، أن يكون العالم الإسلامي غافلا عن ذلك حتى الآن، ولولا الجزيرة ومحطات فضائية محدودة لما علم المسلمون في العالم الإسلامي شيئا عما يحدث لإخوانهم وأخواتهم في الغرب.
إن الدول الإسلامية ينبغي عليها التفكير في ذلك، وأن تسعى مستقبلا مع المسلمين في هذه البلاد، أن تضع خططا طويلة المدى، عن كيفية معيشة المسلمين في سلام، في ظل الأوضاع السياسية العالمية المتغيرة، والتي بدأت ملامحها تظهر في أوروبا، إذ لابد من شراكة جديدة/ والتخلص من فكرة عودة المسلمين إلى أوطانهم السابقة، لأنهم ببساطة لن يفعلوا ذلك، خاصة أبناء الجيلين الثاني والثالث، ولذا يجب تقديم المساعدات الثقافية والشرعية لمهامهم، والتي لا تقتصر فقط على الإنفاق على المساجد وتصريف أمورها، لأن ما سنحتاج إليه في المستقبل هو تحسين البنية التحتية الإسلامية، من تدريس التربية الإسلامية، إلى تأسيس كليات إسلامية، إلى وضع برامج ثقافية وتعليمية، تشكل سويا ما يمكن أن نطلق عليه اسم (الهوية الإسلامية في الغرب)، فقد نشأت على مر السنوات الماضية مجموعة من المسلمين المؤهلين تأهيلا عاليا، الذين ينتظرون بفارغ الصبر أن يحملوا شرف القيام بهذه المهام.

غموض العلاقة بين الدولة والمسلمين حتى الآن

ومن أهم الأمور هو توضيح العلاقة بين المسلمين وبين الدولة الألمانية، كما ظهر بوضوح في حالة الصراع حول صور الكاريكاتير، أو مشاكل السياسة الخارجية، الناجمة عن الهجمات الإرهابية التي قام بها أناس يطلق عليهم اسم مسلمين، بحيث يجري إلصاق هذه الأفعال بالمسلين المقيمين في هذه البلاد.
إن المسلين يعيشون منذ عشرات السنين بين ظهرانينا، سواء كانوا من الألمان الذين اعتنقوا الإسلام، أو من المسلمين المهاجرين من الخارج، الذين جاءوا –كما هو معلوم- بعد الحرب العالمية الثانية، وبنوا هذه البلاد، وهو يدفعون الضرائب، مثلما يفعل كل شخص آخر في ألمانيا، وبالرغم من كل ذلك فإن غالبيتهم يبقون معزولين عنا، ولا يندمجون فينا.
وحقيقة أننا لم نفلح حتى الآن في كسب لاعبي كرة القدم الموهوبين، والذي جاء آباؤهم أو حتى أجدادهم إلى ألمانيا، لكي ينضموا إلى الفريق القومي الألماني، وتفضيل هؤلاء للاستمرار كأعضاء في الفريق القومي لتركيا، يبين بصورة مؤلمة للغاية، أن التعايش المشترك لم يتحقق حتى الآن بصورة صحيحة.
وهناك مثال آخر يتعلق بمسألة الحق الدستوري في الحصول على حصص في التربية الإسلامية، والتي مازالت أمام القضاء منذ عشرين عاما، أي منذ تأسيس المجلس الأعلى

للمسلمين في ألمانيا تقريبا، ورم التصريحات الكثيرة للسياسيين فيما يتعلق بالاندماج، ولكن حين يصل الأمر إلى حيز التنفيذ الفعلي، فإن الأموال لا تكون متوفرة، حتى أنه جرى خفض النفقات على تعليم اللغة الألمانية، وعلى قد سرورنا بالكلمات الصادرة عن الحكومة الجديدة، والتي تبعث على الأمل، والتي تشكل إشارات هامة لخلق الثقة، ولكن المسلمين يريدون أن يكون السبيل إلى إقناعهم عن طريق البرامج التي جرى تطبيقها فعليا.
إن سن القوانين الأمنية التي تزداد تشددا يوما بعد يوم، وقوانين حظر الحجاب الإسلامي، والأسئلة المفروضة على المسلمين الراغبين في التجنس، كل هذه الإجراءات لا يمكن أن تحل محل سياسة عقلانية في التعامل مع الإسلام ومع الاندماج، بل على العكس من ذلك فهي تؤدي إلى تعميق الهوة بين الجانبين، وتحطيم الثقة والوثاق الذي يربط بين أطراف المجتمع المتماسك، بل ويهدد بتحطيم كل ذلك.
إن الفرصة كبيرة أن يتمكن التحالف الحكومي بين أكبر حزبين في ألمانيا، وهما الحزب المسيحي الديمقراطي، بزعامة المستشارة أنجلا ميركل، والحزب الاشتراكي الديمقراطي، من علاج هذه القضية الساخنة، وإذا كان هذا التحالف جادا في مسألة اندماج المسلمين، فيجب الآن وضع اقتراحات بناءة على طاولة البحث، عن كيفية استيعاب المسلمين وممثليهم في هيئات المجتمع والدولة.
وإن آمل من أعماقي ألا تضيع حكومتي الألمانية هذه الفرصة الفردية باستهتار، وإذا توافرت الإرادة السياسية لمثل هذه الخطوة، والتي أعترف أنها خطوة في أفق جديد، فإنني على يقين، أنه يمكن عندئذ جمع كل الفعالين في الساحة الإسلامية، الذين يستندون إلى أرضية دستورنا الألماني، وينشطون على أساسه، على طاولة واحدة، لحل كل المسائل العالقة، وعلى رأسها الاعتراف بطرف يمثل المسلين في الحوار مع الدولة، والاتحادات الإسلامية مستعدة للقيام بذلك منذ زمن، علما بأنه لا بديل للحوار.

ضرورة علاج القصور في الهياكل الإسلامية

إلا أن هناك أسبابا إضافية تكمن في داخل هياكل الجمعيات المشرفة على المساجد اليوم، التي هي أساس الجالية الإسلامية، وصحيح أنها ليست كلها من صنع هذه الجالية، فهناك الأحكام المسبقة، وهناك الإسلاموفوبيا، وهناك نقص حسن النية لدى السياسيين، مما يعوق هذه العملية بشدة، وفي كثير من الأحوال يتعلق الأمر بهيمنة الجيل الأول من المهاجرين على الاتحادات والتجمعات الإسلامية، ورغم ما لهذا الجيل الأول من فضل كبير، قدمه في مرحلة تأسيس هذه الجالية الإسلامية، فهم من بنى المساجد، التي تحولت اليوم إلى البنية التحتية الإسلامية، رغم أنهم كانوا في الوقت ذاته يمارسون أعمالهم أو يواصلون دراستهم، وكونوا الأسر المسلمة، ولكنهم ورغم مرور السنين، لم يتيحوا الفرص الكافية للشباب الصاعد الذي يتدفق قوة، ليأخذوا مكانهم، ويضطر الجيل الجديد الناجح في حياته الوظيفية، إلى الوقوف مكتوف الأيدي، ويواجه صعوبات في ممارسة حقه في اتخاذ القرار في داخل جماعته المسلمة.
إن عملية تجديد الخلايا في كافة أوصال التجمعات الإسلامية، والتي أصبحت تمثل ضرورة ملحة، ستتم قريبا وعلى نطاق واسع، بإذن الله.